بقلم
الاستاذ وديع صبرا
مدير مدرسة الموسيقى الوطنية

١

الاستاذ وديع صبرا من مفاخر الموسيقى الشرقية عامةً والموسيقى اللبنانية خاصةً. انتدبته حكومة الجمهورية لادارة المعهد الموسيقي الوطني فقام بذلك بطريقة دلّت على ان بين يُراعي ذلك المتفنن رجلاً عالماً باصول الفنّ، غيوراً على مستقبله في البلاد. وقد القى، في الشهر الماضي، امام وزير المعارف العامة والفنون الجميلة وجمهور من ارباب الفنون الوطنية محاضرة نفيسة باللغة الافرنسية عن الموسيقى الشرقية. عرض في اثنائها آلته المشهورة «بيانو صبرا» وهي ذات وتر واحد، ودساتين عديدة، تعطي جميع النغمات الشرقية، فتكون الآلة الغربية الوحيدة التي تتكلم بافتنا. هذا وقد شاء ان يخصّ «المشرق» بتلك المحاضرة، فشكرناه باذلين الجهد في ترجمة كلامه، منوّهين في كتب ادباء الموسيقيين عما يمكن استمداده في تعريب الكلمات الوضعية.

ف. ا. ب.

كنت في باريس سنة ١٨٩٥، وكان الاستاذ الموسيقي الشهير، السيد لافينياك (M. A Lavignac) يجمع المواد لتأليف دائرة المعارف الكبرى للمعهد الموسيقي، فرغب اليَّ في وضع لحن مختصر تظهر فيه جميع مميّزات الموسيقى الشرقية. ومن ذاك الحين، تولّد فيَّ ميل قوي الى درس موسيقانا، والتضلّع من جميع قواعدها وقوانينها.

وفي سنة ١٩١٣، توفي الاستاذ الكبير بعد ان عهد في مستقبلنا الموسيقي الى صديقه السيد غوستاف ليون (M. G. Lyon) والسيد ليون في عصرنا اشهر عالم في فنّ الساعيّات دون منازع. وقد قدرت الحكومة الفرنسوية مواهبه، فانعمت عليه مؤخرًا بوسام جوقة الشرف من رتبة كومندور،

فكافأت العلم والفنّ ، عن جدارة واستحقاق.

تلقّى السيد ليون وصيّة الاستاذ لافينياك ، بكل احترام ، وقام بموجبها بكل اخلاص وامانة ؛ فلم يألُ جهدًا في خدمة موسيقانا. وقد كان له الفضل في منح مدرستنا الموسيقية الوطنية تلك الجائزة السنوية النفيسة الا وهي پيانو من صنع معامل « پلايل » (Pleyel) الشهيرة ، التي يديرها السيد ليون نفسه. وكان لهُ الفضل ايضاً في اقتنا آلتنا الثابتة الأبراج التي تمكننا من توقيع الانغام الشرقية المختلفة.

لم يكد السيد ليون ينتهي من اعداد رسم رَدْهة « پلايل » الفخمة وهي من روائع الفنّ العصري ، حتى شاء ، على الرغم من اشغاله المتعددة ، ان يخصص الساعات الطوال من نهاره للبحث معي في اصل السُلّم او الديوان الموسيقي (gamme) . كل هذا يُظهر مبلغ اهتمام العالم الشهير بنشر الفنّ الموسيقي في بلادنا . ولنا برهانٌ آخر بكتاب ارسله ، من بضعة ايام ، الى احدى الصحف الفرنساوية في بيروت يقول فيه : « لا يفرح احد من الناس فرحي اذا اطلعت على بعض الايضاحات عن تلك المسألة التي لا تزال عويصةً مبهمة ، الا وهي مسألة الديوان الشرقي . واني ليستنزّني الطرب اذا ما عرفت انه بالامكان ايضاح تلك المسألة التي كثيرًا ما دفعت العلماء الى احراق الحبر على الورق دون ان يعرضوها او يحلّوها كما يجب.»

وان هذه المسألة الفنية تهمّ ايضاً اللبنانيين فحسب ، بل كلّ انسان نال حظاً من الثقافة العقلية العامّة. وهذا ما امكننا تحقيقه في باريس:

لما كانت الاثنا عشر نصفاً من الابراج (demi-ton) الموجودة في مجموع الدساتين (clavier) العصري لا تكفي لتوقيع جميع النغمات الشرقية على اختلافها ، بدأنا بقسم ديواننا الى ٣٦ جزءًا . وللحصول على هذه النتيجة جسنا ، في ردهة پلايل ، بين ثلاث آلات من نوع البيانو ربطت بعضها الى بعض ووُحدت دساتينها في مجموع واحد كان يُنقر عليه بواسطة الكهرباء. ولكن هذا التقسيم لم يكن كافياً لاختباراتنا جميعها . فأجبرنا اذ ذاك على قسم الديوان الى ١٤٤ جزءًا متساوية . وعلى الرغم من ذلك لم تكفِ كل

هذه القسم للقيام بمرغوبنـا . على اني عدت بعد ذلك الى بيروت حاملاً تلك الوثائق واخذت بعمل اول آلة متوحدة الوتر (Monocorde) ، وقد سمعها بعضهم في مدينتنا هذه.

ولم تمضِ سنتان حتى رجعت الى باريس ، فقرّر السيد ليون صنع مثـال اولي لتلك الآلة المتوحدة الوتر في معامل «بلايل» في سان دنيس. وكان ذاك المثال يُنقر عليـه بواسطة الكهرباء . ولكن لمّا كان النقر بواسطة المجرى الكهربائي صعباً بسبب تأثره بالانفعالات الجوّية ، رأيت ان استبدل به الطريقة الحِيَليَّة.

* * *

وقبل ان نبدأ هذا البحث ، ينبغي لنا ان نعرض بعض ايضاحات فنقول:

لنأخذ وترًا طوله متر واحد . فاذا حبسنا الوتر من جزءه التاسع ، وذلك بان نضع الاصبع على ذاك الجزء ، ثم نقرناه حصل لنا نغمةٌ من البرج الأكبر (ton majeur) . واذا حبسنا الوتر من جزءه العاشر ونقرناه ، حصل لنـا نغمة من البرج الأصغر (ton mineur)

امّا في الموسيقى العصرية فلا يستعمل هذان البرجان الأكبر والأصغر ، بل يُستعمل برج آخر يسمّونه المتدل (ton tempéré) . ومن المفيد ان نوضح اننا لا نقصد بالأكبر والأصغر ما يُفهم بهذين النعتين من الانغام الموسيقية ، بل ما يدعوه علماء الطبيعة بالبرج الأكبر والاصغر.

هـذا وان ما يسمّى الديوان المعتدل ديوانٌ اتفاقي لا يُستعمل غيره في الموسيقى العصرية ، وفيه تتساوى جميع الابراج وجميع انصافها. امّا الجزء التاسع من البرج ، او الفرق بين نصف البرج الأكبر ونصف البرج الأصغر ، فقد اعتاد موسيقيّو العصر ان يسمّوه «كوما» (comma) من كلمة يونانية معناها المقطع في الجملة . وليس هناك من برج اصغر من البرج الأصغر ، وهـذا الامر هو موضوع بحثنا اليوم.

واذا قسمنا طول وترنا البالغ المتر الواحد على الارقام ١٠٢٤٣٧٢٧١ . . . حصل

لنا الديوان الطبيعي.

اما الديوان الشرقي ، او سلّم الموسيقى الشرقية كما يسميه البعض ، فقد اهتمّ بتجزئته كثير من علماء الموسيقى فتركوا في ذلك النظريات المختلفة ، والتجربات العديدة لترتيب الانغام تمّا لا يسمح لنا الوقت بالتبسّط فيه ، ولا بالكلام عن جمهرة اولئك العلماء. فنكتفي بذكر اثنين من مشاهيرهم هما حضرة الاب كولنجيت اليسوعي ، والسيّد اسكندر شلفون.

ان حضرة الاب كولنجيت اغنى المؤلفين بالموادّ والآثار والمعلومات عن تاريخ الموسيقى في الشرق ، وعن علم الموسيقى الشرقية . وبما ان الوقت اتاح له ان يُقيم في بلاد الشرق اكثر من غيره من المستشرقين الاختصاصيين بالموسيقى ، كان من حظّه ان يتوصّل الى تلخيص اصول الموسيقى الشرقية من قديمة وحديثة ، واقرارها بابحاث غاية في الدقة والوضوح . ولهذه الابحاث العلمية ، التي طُبعت في باريس منذ ثلاثين سنة ، يعود الفضل بايضاح نظرية الموسيقى الشرقية ونشرها بين علماء البلدان المختلفة.

وما كنّا لنترك هذه الفرصة دون ان نقدّم نصيحة لمن يحبّون هذا الفنّ الشرقي ويعملون لتوسيع انتشاره ، فنقول لهم ان يهتمّوا بتعريب ونشر مؤلفات العالم الكبير ، فيؤدوا الخدمة الجلّى للفنّ الشرقي.

اما السيد اسكندر شلفون فهو من وطنيينا اللبنانيين المقيمين في القاهرة. وهو في الوقت الحاضر ، اشهر من يُذكر من ارباب الموسيقى الشرقية . تدلّ على ذلك مقالاته النفيسة التي ينشرها في مجلّته الشهرية ، « روضة البلابل » .

هذا وعندما تُنشر جميع الابحاث في علم الموسيقى الشرقية ، يمكننا ان نقابل بين العلوم الشرقية والغربية ، فنظهر الفروق بين الفنّين الشرقي والغربي.

* * *

لا يخفى عليكم ان الموسيقى الشرقية تلاقي اليوم صعوبات جمّة وتتلقّى هجمات عنيفة . وهذا ان الشعب اليوناني تركها منصرفاً عنها الى الموسيقى الغربية . ويمكن القول نفسه عن الأتراك الذين لا يقتنعون اليوم بفنّ لا يزال

في مهده . حتى ان المصريين انفسهم يتساءلون هل يستحق هذا الفن ما يُبذل في سبيله من التشجيعات ؟ وقد نشرت احدى صحف القاهرة المهمّة مقابلة معنونة بين النوبة الشرقية ، والنوبة المصرية ، وذلك بمناسبة افتتاح المدرسة الموسيقية المصرية في اوبرا القاهرة .

فينتج ان الفن الشرقي في خطر . فهل من طريقة لتلافي هذا الخطر ؟ وما هي تلك الطريقة ؟

لا يمكننا وصف الدواء قبل ان نفحص العليل جيداً ونشخّص الداء بدقة : ان صناعتنا الموسيقية ضعيفة فقيرة . وان فنّنا الموسيقي مهجور . وان علمنا الموسيقي يجهله موسيقيونا بالاجمال ؛ اللهمّ بعض العلماء القليلين الذين وجدوا من انفسهم ميلاً خاصاً لهذا العلم فلم يقدروا على درسه الّا في مؤلفات الاجانب .

فنرى ان في الموسيقى الشرقية كثيراً من النواقص ، كما نرى فيها كثيراً من الحسنات ايضاً :

وهذا ما سندرسهُ في العدد القادم .